الدار المالكية للنشر والتوزيع

رحلات الهلالي

تسع رحلات للعلامة تقي الدين الهلالي

رحمه الله

١٣١١ - ١٤٠٧ هـ ١٨٩٣ - ١٩٨٧ م

تحقيق وتأليف

أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

دار المهدي

المُلْحَقُ الثَّالِث

الطَّبَقَاتُ الاجتماعيَّةُ عِندَ العرَبِ

(بِاللُّغَةِ الألمَانِيَّة)

تَصْنِيفُ

العلاّمة محمّد تقِيّ الدِّين بن عبد القَادر الهلالي

تَرجمَها

مَجموعَةٌ مِنَ الطَّلَبَةِ الألمَانِ

قَرَأهَا وعَلَّقَ عليها

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

تمهيد

❖ «الطبقات الاجتماعية عند العرب» هل هو كتاب أم مقال؟

ذكره الهلالي في الترجمة الذاتية الأولى له مؤلَّفًا برقم (٩٤) ضمن (المقالات)؛ فقال: «نشر في مجلة «دير إسلام الألمانية»، بينما ذكره ضمن (المؤلفات) في الترجمة الذاتية رقم (١١) وقال: «باللغة الألمانية»، وذكره محمد المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٩)، فقال وهو يعدد كتبه: «الطبقات الاجتماعية عند العرب»، وهكذا صنع العقيل في «من أعلام الحركة الإسلامية» (ص٤٩٤)، والعلاونة في «ذيل الأعلام» (١/ ١٧٠)، والجراري في «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (١٢٤) وقال: «نشر في مجلة «دين الإسلام»! كذا فيه: «دين»! ومخلص السبتي في «السلفية الوهابية في المغرب» (ص ٤٧) وجعله الدرة اليتيمة لكتب المؤلف في علم (التاريخ)!

قال أبو عبيدة: الصحيح أنه كتبه بالألمانية، وهو مقالة.

وبتعبير أدق: نشر في مجلة «العالم الإسلامي» الألمانية «DIE WELT DES ISLAMS» المجلد (٢٢) سنة ١٩٤٠م (ص١٠٢ - ١١٠).

وليس في «دير إسلام» كما في هامش «الخلع في الإسلام» (ص ٥٣) للمؤلف، ولا «دين الإسلام» كما في «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص ١٢٤)!

❖ **أول ما أُرسل لي هذا المقال**

أرسلته لي -لأول مرة- من ألمانيا الدكتورة أنابيل باتشير في ٢٠ شعبان ١٤٢٦هـ يوافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٥م، فلها مني جزيل الشكر.

❖ **صلة هذا المقال بـ«رحلة من الزبير»**

تبيَّن لي أن مـادة نواة هذه المقالة مأخوذة من كتابـه «رحلة من الزبير»، فقد تعـرض لفحوى مادتها، مـع تهذيب وزيادة يسيرة عليهـا، ونبَّه على ذلك، ولعله يؤكد ذلك أن القطعة المترجمة إلى الألمانية من هذه «الرحلة» ليست فيها هذه المادة، وأدرجتُها بتمامها في (الملحق) السابق.

❖ **من ترجمه لي إلى العربية؟**

ترجم لي هذه المقالة مجموعة من الطلبة الألمان، هم الأساتذة الإخوة الفضلاء: عبدالعزيز بن زاهد فورتو، وعدنان بن يوسف توبجانجيح، وخالد بن عادل الحلواني، ثم راجعها الأخ الشيخ عصام بلقاسم، فجزاهم الله خيرًا.

❖ **من راجع البحث؟**

من المفيد أن أستاذ الهلالي ريكارد هارثمان[1] راجع هذا البحث، لأنه أكاديمي، وكتب عليه ملاحظات، موقعة باسمه هكـذا (ر. هارثمان)، وهذه هي ترجمة المقال، ثم أذكر على إثـره مصورته باللغة الألمانية:

---

(١) ولد سنة ١٨٨١م، وتخرج من جامعة توبنگن وبرلين، وعيِّن مساعدًا لأمين مكتبة جامعة توبنگن سنة ١٩٠٥ - ١٩١٠م، وعاون على نشر «دائرة المعارف الإسلامية» سنة ١٩١٣م، وسمِّي (معيدًا) في جامعة ييل سنة ١٩١٤ - ١٩١٨م، وأستاذًا فوق العادة في ليبزگ سنة ١٩١٨ - ١٩٣٠م، وأستاذًا للعربية في جامعة برلين ١٩٣٦م، ومديرًا لمعهد اللغات الشرقية ببرلين، وانتخب عضوًا في مجامع كثيرة؛ منها: المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد صنِّف كتاب لتكريمه في برلين سنة ١٩٥٢م. وكتب في «المجلة الشرقية» الألمانية عدة أبحاث؛ منها: «الفتوة» في سنة ١٩١٨م، «الوهابيون» في سنة ١٩٢٤م، ونشر في الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية: «المسجد الأقصى، وجغرافية شرق الأردن»، وكتب في مجلة «الآداب الشرقية» عدة أبحاث؛ منها: «الكرك على عهد المملكة اللاتينية» سنة ١٩١١م، «الحركات الوطنية» سنة ١٩١٩م.

مات سنة ١٩٦٥م.

=

= كتب الهلالي مقالة في ترجمته بعنوان (ريكارد هارثمان أستاذ اللغة العربية في جامعة برلين بريء من الطعن في العرب وهو عالم حر)، نشرت في جريدة «الحرية» المغربية، السنة السادسة، العدد (٧٩٧) الخميس ٢٤ جمادى الثانية ١٣٦١هـ - ٩ يوليه ١٩٤٢م، (ص١، ٢)، وهي في كتابي «مقالات السير والتراجم والمناقب ومقدِّمات الكتب والتقاريظ لها للعلامة تقي الدين الهلالي» (ص٥١٧ - ٥٢٤، ط مكتبة ومركز فهد الدبوس).

ومما قاله الهلالي فيها:

«إنني لم أكن قط -ولن أكون إن شاء الله- داعية رأي دولة أجنبية، ولكني أدافع عن الحق بقدر طاقتي وأقوله -إن شاء الله- وإن كان مرًّا، ولا أنكر فضائل أعدائي ولا أرميهم بالعيوب التي ليست فيهم.

فدفاعي اليوم عن أستاذي هارثمن هو مطابق لخطتي، موافق لها، وما تتبادله الدولتان الجرمانية والبريطانية من المطاعن الحسية والمعنوية؛ هو من شأنهما وحدهما ومن شأن حلفائهما، **وأما هذا الدفاع -الآن- فهو حر علمي إنساني، لا علاقة له بالتحيز إلى أحد الجانبين**.

الأستاذ هارثمن أستاذي، وعلى يده تخرجتُ، وتخرج كثير من طلبة العلم من الشرقيين والأوروبيين، وقد نفع الله بعلمه نفعًا عميمًا، لم يتهيأ إلا لأفذاذ قليلين من العلماء في الحال والماضي، وذلك بسبب المزايا التي خصه الله بها؛ وهي العلم والتحقيق، والحرية من هوى النفس وحب السمعة، وحسن الخُلق مع جميع الناس، ومع ما آتاه الله من الهيبة والإجلال لدى جميع الناس، تراه متواضعًا صارفًا كل جهده في خدمة العلم للعلم لا يصده عن ذلك شيء، وقد وحَّد همَّه وقصده وهو خدمة العلم الحر، وجعل كل شيء سوى ذلك دبر أذنه».

ومن الجدير بالذكر: أن لصديق الهلالي أمير البيان شكيب أرسلان مقالة **جميلة غاية** بعنوان (برح الخفاء: ريكارد هارثمان هو غير مارتين هارثمان، فالأول طيِّبٌ وطيِّب، وأما الثاني فقد مات وكان خبيثًا)، نشرت في جريدة «الحرية» التطوانية، السنة السادسة، العدد (٨١٥)، الثلاثاء ٢٨ رجب ١٣٦١هـ - ١١ غشت ١٩٤٢م، (ص١)، بيَّن فيها أن المتكلم عليه الثاني لا الأول أستاذ صديقه الهلالي، ومما قال فيه:

«اطلعت على العدد (٧٩٧) من «الحرية»، فرأيت في صور هذا العدد مقالة لحضرة الأخ الأستاذ العلامة السيد تقي الدين الهلالي يدافع فيها عن الأستاذ المستشرق =

= ريكارد هارثمان الألماني، أستاذ اللغة العربية في جامعة برلين، ويذكر أنه تخرَّج على يده، وانتفع به كثير من طلبة العلم الشرقيين، وهو ينزِّهه عما عُزي إلى المستشرق الألماني الآخر مارتين هارثمان من الطعن في الأمة العربية... ».

وذكر طعونه وردها، ثم فرق بين الاثنين بما يرفع كل لبس، وأنه عرف الثاني، والتقاه في بيروت وهو في الرابعة عشر من العمر، ثم في ألمانيا وهو ابن سبع وأربعين سنة، وختم مقالته بقوله: «وعلى كل حال؛ فريكارد هارثمان هو غير مارتين هارثمان، وقد شهد له الأستاذ تقي الدين الهلالي، والفضل والإنصاف وشهادة الهلالي تعدُّ بألف شهادة، ومن ثبتت عدالته قُبلت شهادته».

الطبقات الاجتماعية عند العرب

مِنَ المعلُومِ عِند كُل مَن يَسْعَى لمعرفةَ التَّقْسِيم الطَّبَقِي فِي مجتمعات العالـم: أَنَّ مثل هـذا النوعِ مِنَ التَّقْسِيم مُنتشرٌ جِدًّا في بـلاد الهند في صفوف الهندُوس.

وأرْفَعُ هذه الطبقات عندهم: هي طبقـةُ البرَاهِمَة، أمـا أدْنَاها فَطَبَقَةُ المَنْبُوذِين؛ ثُمَّ إنَّ كُلَّ طَبَقةٍ تترفَّعُ على مَن دُونَها من الطبقات، لدرجة أنَّ المُنتَمِي إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ ما؛ لا يُؤَاكِلُ مَنْ دونَهُ في الطبقةِ الاجتماعية! وهذا شيءٌ مَعْرُوفٌ(١).

إلا أنَّ النَّزْرَ اليسيرَ من الناسِ يَعْلَمُ بوجودِ تقسيماتٍ طبقيَّة في مجتمع الجزيرة العربية، تُشـابه -مِن بعضِ الأَوْجُه- مثيلاتها في بلاد الهند.

والبَاحِثُ في العَلاقاتِ الإسـلاميةِ -بِتَمَعُّـنٍ- يَعْلَمُ أَنَّ نِظَامَ الطَّبَقاتِ الاجتماعية لا يُعَدُّ ظاهِرَةً مُبْتَدَعةً، إنما كان أَمْرًا سائِدًا مُنذ سالِفِ الأعصارِ.

وَبِمَجِيءِ الإِسلام؛ نَشَـأَتْ حَرَكَةٌ قَوِيَّةٌ ضِدَّ نِظَام الطبقات الاجتماعية -هذا-، وقد اجتهدَ النبيُّ [ﷺ] في إزالَةِ هذَا التَّمَايُـز الطَّبَقِيِّ، وَوَضْـعِ كَافَّة البَشَـرِ في طَبَقَةٍ وَاحِدة؛ أَلَا وَهِيَ دينُ الإسلامِ.

ومع النجاح الذي حَقَّقَهُ في هذه الإزالة، إلا أنها لم تكن إزالةً تامَّةً وشامِلة، ويتجلَّى هذا المَعنى في حديثٍ يُوحي بجلاء أنَّ النبي [ﷺ] قد عَلِمَ بهذا

(١) انظر ما علَّقناه على (طبقة المنبوذين) في «رحلة من الزبير» (ص٨).

الأمر، وذلك؛ في قوله: «**أَربَع في أُمَّتي من أَمرِ الجاهلية؛ لا يَترُكُونَهُنَّ**»[١]، وواحدة من هذه الأربعة: هي «**الطَّعْنُ في الأَنسَاب**»[٢].

وفي «صحيح مسلمٍ مع شرحِ النوويِّ وتعليقاتِ القسطلانيِّ في الحاشية»[٣]، قال رسول الله [ﷺ]: «**اثنتان في الناس هما بهم كُفرٌ: الطَّعنُ في النَّسبِ، والنِّيَاحَةُ على الميتِ**»[٤].

كمَا نَجِدُ عندَ الترمذي وأبي داود حديثًا صحيحًا ضد الذين يفاخرون بأصولهم العريقة، قال فيه رسول الله [ﷺ]: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب**»[٥]، ثم تلا الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات ١٣][٦].

أورد القسطلاني في «شرحِهِ على البخاريِّ»[٧] حديثًا قال فيه النبيُّ [ﷺ] لأبي ذرٍّ [رضي الله عنه]: «**إنك امرؤ فيك جاهلية!**»، والسببُ: أنَّ خُصُومَةً نَشَبت

---

(١) والمعنى: أنَّ بعضَ أتباعِهِ لن يتركوا هذه الخِصال.

(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) (٢/ ٣٣٢ - ط القاهرة).

(٤) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥ و٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، **وهو حديث حسن** -كما قال الترمذي-. وانظر: «علل الدارقطني» (٤/ ١٢٤).

(٦) «أحكام القرآن» (٠٣/ ٤٠٩) للجصَّاص، «تفسير الطبري» (٢٦/ ٨٩)، «تفسير النيسابوري» على هامش «الطبري» (٢٦/ ٩٤)، «تفسير الزمخشري» (٢/ ١٣٩٧ - ط كلكوتا).

(٧) «إرشاد الساري» (١/ ١١٥).

بين أبي ذرٍّ وبلالٍ -الحَبَشِيِّ الأصل-؛ فشَتَمَهُ قائلًا: «يا ابن السوداء!»، فاشتكى بلالٌ عند النبيِّ [ﷺ]، عندها نَدِمَ أبو ذرٍّ عمَّا بدر منه من كلام بعد توبيخِ النبيِّ [ﷺ]، واستلقى على الأرض، ولم يرضَ أن ينهض إلاَّ بعد أن يضع بلالٌ رجله على رقبته، وكذلك فعل[1].

وهناك قصةٌ أخرى؛ تُرِينا -بِشَكْلٍ وَاضِحٍ- كيف حارب النبيُّ هيمَنَةَ الطبقيَّة الاجتماعية، يَرْوِيهَا زيدُ بنُ حَارِثَة، أوردُ مضمُونَها -هنا- باختصارٍ، على أن أُعالِجَ هذا العُرفَ [الاجتماعي] -بتفصيلٍ- في مقال لاحق[2]:

كان زيدُ بنُ حارِثَةَ مولًى للنبيِّ [ﷺ]، ثُمَّ أعتقَهُ وتبنَّاهُ، وبمجيء الإسلامِ؛ أُلْغِيَ هذا التبني، عندها؛ طلب محمدٌ [ﷺ] يد ابنة خالته زينب ليزوجها زيدًا، إلا أنها رفضت الزواج من شخصٍ كان عبدًا في السابق، وقالت: «إذا كان هذا أمرًا من اللهِ؛ أطعتُ، وإلا؛ فإني أرفض»، يذهبُ بعضُ مفسري القرآن إلى أن رفضَ زينب سببٌ لنزول هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦][3].

---

(١) لم أجده بهذا السياق، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٧٢) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون آخره: «**ليس لابن البيضاء...**»، **وإسناده واهٍ**، فيه أبو عبدالملك؛ وهو علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك.

والحديث أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسياق آخر.

(٢) هي مقالة (التفاخر بالأنساب) نشرها على تسع حلقات في جريدة «الأخبار» التطوانية، السنة الأولى، الأعداد (٢٧٣ - ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٤ - ٢٨٦) سنة ١٣٦٣هـ- ١٩٤٤م.

(٣) انظر -أيضًا-: «القسطلاني» (٧/ ٢٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩)، و«تفسير ابن كثير» (١١/ ١٦٧).

وفي النهاية؛ ندمت زينب على موقفها المتشدِّد، وأتت النبي [ﷺ]، وأعلنت عن رغبتها بالزواج، ثمَّ تزوجت زيدًا.

إلا أن الزواج لم يكن سعيدًا؛ بسبب التفاوت في الأصل والنسب، حتى اضطرَّ زيدٌ -في نهاية المطاف- إلى تسريحها؛ فتزوجها النبيُّ [ﷺ] بأمرٍ من الله[١].

سعى محمد [ﷺ] -من خلال هذا الزواج- إلى تحقيق هدفين:

الأول: القضاء على التمايُز الطبقي في المجتمع بطريقة عمليَّة يؤديها بنفسه؛ باعتباره قُدوة لغيره.

الثاني: إزالة عادةٍ أخرى كانت سائدة قبل الإسلام؛ فقد كان ممنوعًا أن يتزوج الرجلُ طليقة ابنه بالتبنِّي، ومع أن القرآن نهى عن هذه العادة؛ إلا أن أحدًا لم يتجرأ على أن يخالف تلك العادة السائدة؛ فقام النبي [ﷺ] -من خلال هذا الزواج- بإبطال تلكم العادتين.

مثالٌ آخرُ على ما تقدَّم؛ نستفيده من قصةٍ لأمِّ كُلثوم بنت عقبة بن [أبي] معيط، والتي عرضت نفسها على النبي [ﷺ]؛ فقَبِل عَرضَها، ولكنهُ زَوَّجَها زيدًا، الأمرُ الذي أثار حفيظتها وحفيظة أخيها للغاية، وقالا: «نحن نعرض أنفسنا على النبي[ﷺ]، وهو يعطينا لمولاه!»[٢].

---

(١) في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وانظر: «صحيح البخاري» (٤٧٨٧)، (٧٤٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧).

(٢) قاله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠)، «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٦٧ - ١٦٨).

وفي رواية عند الترمذي(١) -تتعلَّق بما تقدَّم- قال النبي [ﷺ]: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه؛ فزوجوه، إلا تفعلوا؛ تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض**»، ويتبيَّن لنا من مفهوم هذه الرواية: أن العادة في مَن ينتمون إلى طبقة اجتماعية عريقة؛ أنهم لا يعطون ابنتهم إلا لمن كان من نفس طبقتهم الاجتماعية، ويرفضون غيره ممن ينتمي إلى طبقة اجتماعية أقل، ولو كان ذا دينٍ وخُلُق.

وقد عرف النبي [ﷺ] المخاطرَ التي تُسببها هذه الخصلةُ على الأخلاقِ والعاداتِ الحميدة، ولهذا؛ اجتهد محمد [ﷺ] حثيثًا -كما يتبيَّنُ لنا بوضوح من الأمثلة القليلة المتقدِّمة- في محاربة التمايز الطبقي السائد في المجتمع.

أما مدى النجاح الذي تحقَّق من هذه الجهود؛ فسيتَّضح لنا من خلال ما سيأتي.

لقد قابَلَ العربُ هذه الأحكامَ -تماما كما توقَّع النبيُّ [ﷺ]- بفزعٍ؛ إذ لم يتمكنوا من التخلِّي التامِّ عن كلِّ عاداتِ الجاهليَّة، فقد استمر فيهم الفخرُ بالأحساب والأنساب، وبقيت النظرةُ الدُّونِيَّةُ والاحتقارُ لِمن كان مِن طبقةٍ اجتماعيةٍ أَقَلَّ مِنهُم.

ثُمّ إنَّهُ -مع مرور الزَّمَنِ- ضَعُفَ عندهم التَّمَسُّكُ بعقيدةِ الإسلام، لدرجةٍ جعلتهم ينحرفون عن منهج النبيِّ [ﷺ] انحرافًا شديدًا.

والتقسيمُ الطَّبَقِيُّ التالي؛ هو السائدُ -اليومَ- في مجتمعاتِ جزيرةِ العرب، وسأقتصر -هنا- على أحوال القبائل العربية المتواجدة في الحجاز، في نَجْدٍ وفي العراق.

الطبقةُ الأولى:

تضُمُّ الطبقةُ الأولى **الشيوخَ**؛ وهم قادةُ القبائل، ويوجد في كُلِّ قبيلةٍ عشيرةُ شيخٍ؛ مثل آل سعود في العارض، وآل رشيد في حائل، وآل الصُّباح

---

(١) برقم (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **والحديث صحيح**.

في الكويت، وآل خليفة في البحرين، وآل سعدون في العراق، وهكذا.

يعتبر هؤلاء الشيوخ أنفسهم أعلى مرتبةً وأرفع من باقي أفراد القبيلة، وغالبًا ما يزوِّجون بناتهم من داخل العائلة أو من عائلةِ شيخ آخرَ كبيرةٍ، وقد يتزوَّج [رجال هذه العائلات] من عامَّة نساء القبيلة -أحيانًا-.

الطبقة الثانية:

الطبقةُ الثانية تمثِّل **أفراد القبيلة** بشكل عامٍّ، ويدخل فيها سائرُ القبائل العربية؛ مثل: عنزة، شمَّر، مطير... إلخ، وأيُّ شخصٍ ينتمي لهذه القبائل، ودمُهُ غيرُ مختلط بدمٍ آخر من جهة الأم، ولم يُصاهِر غيرَهُ مِمَّن دُونَه في الطبقة الاجتماعية؛ يُعَدُّ عَرَبِيًّا، لا يُمكن لأحد أن يطعن في نسبه.

ولا يوجد -في حقيقة الأمر- أيُّ اختلافٍ بين الطبقة الأولى والثانية، ذلك؛ أن الطبقة الأولى لا ترى نفسها أعلى من الثانية بسبب فارق في النَّسَب، إنما يكمُن التمايُز في الدور القيادي للطبقة الأولى، الأمرُ الذي أَكْسَبَهَا وجاهةً وأثرًا لا يوجد عند سواها.

الطبقة الثالثة:

تشملُ الطبقةُ الثالثةُ من يُسَمَّونَ بـ**(الخضِيرِي)** و**(الصَّفَّار)**.

و (الصَّفَّار) هم الذين يشتغلون بالحرف اليدوية؛ مثل الحِدَادة وما شابهها.

أما (الخضيري) فهم يمثِّلون -تقريبًا- نصف سكَّان المدن والبوادي، وأصلُ أنسابهم غير معروف، ولا ينتمون إلى قبائل عربيَّة بعينها، وأصلُ كلمةِ (خضيري) في اللغة ليس معروفًا -عندي-(١)، لكن علماء نجدٍ يُطلِقُونَ على مَنْ ينتمي لطبقةِ (الخضيري) -في اللغة العربية الفصحى- لقبَ (الموالي)؛ وهو جمع كلمة (مَوْلَى)، ومعناه: العبدُ المُعتَق، ولا عِلمَ لي بأنسابِ من

(١) يبدو أن نُطقَ هذه الكلمةِ مُستَقِرٌّ على هذه الصفة، وقد أفاد السيِّد (الهلالي) جوابًا على سؤالي إيَّاهُ: إنه من الممكن أن تكون هذه الكلمةُ تحريفًا باللهجة العاميَّة، أصْلُها كلمة (حَضَرِيٌّ)، خاصَّةً وأنَّ البعض قد ينطق الحاءَ خاءً -أحيانًا-. (ر. هَارْتْمَان)

ينتمي لطبقة الخضيري، إلا أَنَّ قَبلِيًّا قال لي: إنَّ الخضيري أصلهم موالي مُعتَقون، قد كانت العربُ تعرفُ القبائل المختلفة التي كانوا ينتسبون إليها، إلا إني أشكُّ في مدى إمكان إثباتِ هذا الانتساب في وقتنا الحاضر.

وعلى كُلِّ حال؛ فإن هذه الطبقة موجودة في جزيرة العرب منذ قرون عديدة، ولا يُمكن التفريق بينهم وبين باقي القبائل بمجرَّد الاعتماد على الظاهر؛ فالقبيليُّ لا يستطيع أن يميِّز الخضيريَّ حتى يسأله عن نسبه[١].

---

(١) فائدة: سُئِلَ العلاَّمةُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن معنى قولهم (قبيلي) و(خضيري)؟

فأجاب: «هذه مسألة جزئية، وهي معروفة بين الناس، القبيلي: هو الذي له قبيلة معروفة ينتمي إليها؛ كقحطاني وسبيعي وتميمي وقرشي وهاشمي -وما أشبه ذلك-، هذا يسمى قبيلي؛ لأنه ينتمي إلى قبيلة، ويقال: (قبلي) على القاعدة؛ مثل أن يقال: حنفي ورَبَعي -وما أشبه ذلك-، نسبة إلى القبيلة التي ينتمي إليها.

والخضيري في عرف الناس في نجد خاصة -ولا أعرفها إلا في نجد-: هو الذي ليس له قبيلة معروفة ينتمي إليها؛ أي: ليس معروفًا بأنه قحطاني أو تميمي أو قرشي، لكنه عربي، ولسانه عربي، ومن العرب، وعاش بينهم، ولو كانت جماعته معروفة.

والمولى: في عرف العرب: هو الذي أصله عبد مملوك ثم أعتق.

والعجم: هم الذين لا ينتسبون للعرب، يقال (عجمي)؛ فهم من أصول عجمية، وليسوا من أصول عربية، هؤلاء يقال لهم (أعاجم).

والحكم في دين الله: أنه لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، سواء سمِّي قبليًّا أو خضيريًّا أو مولًى أو أعجميًّا؛ كلهم على حد سواء، لا فضل لهذا على هذا، ولا هذا على هذا إلا بالتقوى؛ كما قال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى، ولا فضل لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»، وكما قال الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، لكن؛ من عادة العرب -قديمًا- أنهم يزوجون بناتهم للقبائل التي يعرفونها، ويقف بعضهم عن تزوج من ليس من قبيلة يعرفها، وهذا باق في الناس، وقد يتسامح بعضهم؛ يزوج الخضيري والمولى والعجمي، كما جرى في عهد النبي ﷺ؛ فإن النبي -عليه الصلاة والسلام- زوَّج أسامة بن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهو مولاه وعتيقه-
=

ثُمّ إن القبيليين يحتقرون الخضيريين، إلا أنهم لا يُصرِّحون بهذا الأمر، ما لم تنشب بينهم خصومة؛ فإذا شبَّ الخلافُ؛ ظهر التَّعالي الدَّفينُ، وسُبَّ الخضيريُّ بـ(العبد الأبيض)؛ إذ يرى العربُ أنْفُسَهُم أصحاب عِرقٍ ذي بشرة بيضاء، وبما أن العبيد -منذ فترة طويلة- هم -فقط- من الزنوجِ السود وأهلِ الحبشة؛ فصار العرب يطلقون لقب (العبد الأبيض) على الخضيري.

والعجيبُ في الأمر: أن الخضيريين -أنفسهم- ينظرون إلى أنفسهم نظرة دونيَّة، ويتمنَّى كُلُّ واحِدٍ منهم لو كان قبليًّا! كما تُعتبرُ المصاهرة بين الطبقتين أمرًا مستحيلًا؛ إذ أن القبيليين يهتمُّون جدًّا بهذا التحيُّز والتمايز الطبقيِّ.

وقد حَدَثَ أَنَّ أحدًا من طبقة الشيوخ وقع في حُبِّ امرأة من طبقة الخضيري وأرادها لنفسه، وبما أن هذا الأمر لم يكن ممكنًا إلا عن طريق الزواج، ونظرًا لعدم تحمُّله المزيد من التصبُّر؛ تزوَّج منها سرًّا دون أن يُعلِمَ أهلهُ وأقارِبَهُ، إلا أنه -وبعد ليلة واحِدةٍ من الزواج- قَدِمَ عليهِ أهلُهُ

= فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي قرشية، وكذلك؛ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة -وهو من قريش- زوج مولاه سالمًا بنت أخيه الوليد بن عتبة، ولم يبالِ لكونه مولًى عتيقًا، وهذا جاء في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبعدهم كثير، ولكن الناس بعد ذلك -خصوصًا في نجد وفي بعض الأماكن الأخرى- قد يقفون عن هذا، ويتشددون فيه على حسب ما ورثوه عن آباء وأسلاف، وربما خاف بعضهم من إيذاء بعض قبيلته إذا قالوا له: لم زوجت فلانًا؟ هذا قد يفضي إلى الإخلال بقبيلتنا، وتختلط الأنساب وتضيع، إلى غير ذلك، قد يعتذرون ببعض الأعذار التي لها وجهها في بعض الأحيان، ولا يضر هذا، وأمره سهل، المهم اختيار من يصلح للمصاهرة لدينه وخلقه، فإذا حصل هذا؛ فهو الذي ينبغي، سواء كان عربيًّا أو عجميًّا أو مولًى أو خضيريًّا -أو غير ذلك-، هذا هو الأساس، وإذا رغب بعض الناس ألا يزوج إلا من قبيلته؛ فلا نعلم حرجًا في ذلك، والله ولي التوفيق»، انظر: «مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز» (١٤٦/٥).

بسلاحِهِم -بعدما علموا بخبر زواجه- وهدَّدوه بالقتل إن لم يطلِّق هذه المرأة، وهكذا؛ أُكرِهَ هذا الرجل على أن يطلِّقَ زوجته، **وأنا أعرفُ هذا الرجل شخصيًّا، ولا يزال حيًّا إلى هذه الساعة.**

وقد يَحْدُثُ -أحيانًا- أن يصير لأحدهم من طبقة الخضيري مكانةٌ رفيعة بسبب شجاعته، كرمه أو ثرائه؛ بل البعض منهم قد يُمنَح لقب (الباشا) من الحكومة العثمانية -آنذاك-، ومع كل ذلك؛ فمثل هذا -الذي بلغ هذه المرتبة- لا يرضى أفقرُ وأدنى شخصٍ قبيلي منزلةً أن يزوِّجه ابنته!

بل إنك ترى -في أحيانٍ كثيرة- رجلًا قبليًّا قد بلغ منه الفقرُ مبلغًا، وهو يعمل حمَّالًا للمياه أو راعيًا للإبل، وقد اشتدَّت به الحالُ، وضاقت به السُّبُلُ؛ لن يرضى مثلُ هذا الرَّجُلِ إن كانت له بنتان أو ثلاثٌ ذوات حُسنٍ وجمال، وكان بإمكانه أن يزوِّجهُنّ لرجالٍ أثرياء من الخضيري، ويُحَقِّقَ بذلك سعادتهُ، ويتخلَّص من فقره؛ فإنه -مع كلِّ هذا- لن يفكِّر -أبدًا- في القيام بهذه الخطوة.

والقبيليُّ الذي يتجرَّأ ويقوم بمثل هذا الفعل، ولم يَكن له في عائلته مَن يثنيه عن هذا بالتهديد أو القتل، فإنهُ في اللحظة التي يُنكِحُ فيها ابنَتَهُ رجُلًا خضيريًّا؛ فإن كُلَّ أفراد عائلته من النساء؛ مثل: البنات، والأخوات، والخالات، والعمَّات -وغيرهنَّ-، كُلَّهُنَّ يتمُّ تطليقهُنَّ -فورًا-، ويوصمون بالعار والفضيحة الدائمة؛ بل ويُطرَدون من القبيلة -كلِّها-!

وأسوقُ لكم -هنا- كمثالٍ على ما تقدَّم- واقِعَةً حدثت قبل مدة قصيرة في بغداد: كان عبد المحسن(١) -والذي عُيِّنَ في 19 أيلول 1929 -وللمرة الرابعة- رئيسًا لوزراء العراق- ينتمي إلى طبقة الشيوخ من آل سعدون،

(١) هو عبدالمحسن بن فهد السعدون، ولد في الناصرية سنة ١٨٧٩م، وانتحر في ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م، له ترجمة في: «رجال العراق الملكي» (٤٢ - ٤٨)، «تاريخ الوزارات العراقية» (٨٤ - ٨٥/ الفهارس).

ثُمَّ إنهُ تعرَّف على شـابٍّ ذي شـخصية مميَّزة ومن عائلة خضيريَّةٍ عريقة؛ ألا وهو ابن أحمد باشا آل صانع[(١)].

وقد قام عبد المحسن بمخالفة التقاليد السائدة -آنذاك-، ووعد الرجل الشاب بأن يزوِّجه ابنته؛ لِمَا يُكِنُّهُ له من إعجابٍ شديد، إلا أن عبد المحسن -وقبل موعد حفل الـزواج- أقدم على الانتحار؛ بسـبب خصومةٍ وقعت بينه وبين المندوب العامِّ البريطاني السير گيلبرت كلايتون، وبعد انقضاء مدَّة من الزمن على الحادثة؛ جاء الرجل الشـاب إلى أرملة عبد المحسـن سائلًا إياها عن مدى اسـتعدادها لتنفيذ وَعد زوجِها؟ فأقرَّت بوعده الذي قطعه، وأبدت موافقتها على إتمام الزواج، وعندما علم أقارب عبد المحسن بالخبر؛ جاءوا إلى الرجل الشاب وهددوه بالقتـل إذا غامر وقام بمخالفة هذا العُرف المُتَّبَع، إلا أنَّ الشـابَّ لم يأبه بذلكم التهديد؛ فتمَّ قتلُهُ مباشرة بعد حفل الزواج[(٢)].

إن القبيليين إذا أتاهم شـخصٌ غريبٌ لا يعرفون نَسَـبه -عربيًّا كان أو غيرَ عربـي-؛ فإنهم يعتبرونـه خضيريًّا، حتى لـو ادَّعى أنه مـن قبيلة النبيِّ [ﷺ]، وهذا العُرفُ -بلا أدنى شـكٍّ- مخالفٌ للإسلام، ومـع هذا؛ فإن بعض فقهاء المسلمين حاولوا جعلَ التساوي في الأنسـاب شرطًا لصحَّة عقد النكاح!

أما بذلُ النصيحـة لهؤلاء القوم حول هـذا الموضوع؛ فـإنَّ قبائل مِثلَ قبائلِ العراقِ ونَجْدٍ لا تَقبَلُهَا، ولا تُلقي بالًا للأحكام الشرعية في هذا الباب، حتَّى وإن تُلِيَتْ عليهم الآيـات القرآنية والأحاديثُ النَّبويَّـة! بل إنَّ أبغضَ

---

(١) انظر عنه: «تاريخ الوزارات العراقية» (ص٩/ الفهارس).

(٢) حول هذه الحادثة وماجرياتها؛ انظر -أيضًا-: «E. Main, Iraq»، لندن ١٩٣٥م، (صفحة ٢٥٣). (ر. هارْتْمَان)

النَّاسِ إليهم -غالبًا- هو ذلك الذي ينهاهم عن مثل هذا الكِبْرِ القَبيلِيِّ، ويَحُضُّهُم على المساواة بين البشر.

وكثيرٌ منهم يحرصون -شديدَ الحِرصِ- على التمسُّك بالتعاليم الشرعيَّة، ولكن؛ إذا تعلَّق الأمرُ بهذه المسألة؛ فإنهم يناقضون أنفسهم، وتجدهم مُعْرِضِين!

وإذا قال أحد الغرباء لهم: اتَّقوا الله، واتركوا التعصب للجاهليَّة!

أجابوه بقولهم: هل أنت قبيلي أو خضيري؟

فإذا قال: أنا عَرَبِيٌّ قُحٌّ، إلا أن الواجِبَ عليَّ الانقيادُ لفرائض الإسلام، والإسلامُ لم يُفرِّق بين نَسَبٍ وآخر، والنبيُّ [ﷺ] -أشرفُ العربِ قاطبةً- زوَّجَ ابنةَ عمَّتِهِ لمولًى مُعْتَق، ثُمَّ تَزَوَّجَها -هُو- بعد طلاقها، وتزوَّج صفيَّةَ [رضي الله عنها] وهي غَرِيبَةٌ عَنْ قَبِيلَتِهِ، وكذلك؛ الكَثِيرُ من صحابة النَّبِيِّ [ﷺ] تزوَّجوا نَساءً غريباتٍ [عن قبائلهم].

فإنهم -بعد هذا كله- لا يُلقُون بالًا لهذا الكلام، ويَرُدُّونَ على مُخاطِبِهِم بقولهم: لا بُدَّ أنَّ عِرقًا [دنيئًا] نَزَعَك!!

الطبقة الرابعة:

الطبقة الرابعة هي **طبقة الهُتَيْم**، وكانت هذه الطبقة قبل ثلاثين عامًا لا تزالُ منبوذة، ضعيفة، محتقرة، ومشتَّتة، وكُلُّ جزءٍ من الهتيم كان تابِعًا لأحد الشيوخ أو إلى قبيلة عريقة؛ ملتزمين بدفع الإتاوات إليهم، ويخدمونهم كالعبيد مقابل الحماية؛ إذ لم يكونوا يحملون معهم أيَّ سلاحٍ، ولم يخوضوا حربًا مع أحد.

إلا أن هذا الظلم صار لهم أمرًا لا يُطاق؛ فاجتمع بعضُهُم ودعوا كافة مَن كان مِنَ الهتيم أن يفعلوا كسائر العرب، وأن يكسروا هذه الأغلال،

وفي فترة وجيزة اتحدوا -جميعًا- ضمن قبيلة واحدة، وسلحوا أنفسهم، ثُمَّ أغاروا على إحدى قبائل العرب؛ فقتلوا رجالها، وغنموا المواشي والأملاك وساقوها معهم، ثُمَّ واصلوا الإغارة على كافة القبائل -تقريبًا- الواحدة تلو الأخرى، منتصرين على خصومهم كلَّ مرة، حتى صارت العرب تهابهم، وتحرَّروا مما كانوا فيه، وصاروا من أقوى القبائل، حتَّى أنَّ السائلَ لكبار السنِّ من الهتيم -ولغيرهم من سائر القبائل العربية- عن ماجريات الأحداث؛ فإنهم يقصُّون أعجب الحوادث حول هذا التطور الذي حصل لدى الهتيم.

ومن غرائب هذه القبيلة: أنها الوحيدة -دون كافة القبائل العربية المحيطة بها- التي تقوم بصُنع الجبن، بينما غيرهم من العرب يعتبرون ذلك أمرًا دنيًّا يحطُّ من كرامتهم.

ولا يزالُ هذا الاحتقار يمثِّلُ -إلى يومنا هذا- حِملًا ثقيلًا على القبيلة، ولا يوجد أي أحد من قبائل العرب أو خضيريٌّ يقبل بالزواج من امرأة تنتمي لهذه القبيلة، وإذا سمعتَ عربيًّا يصفُ غيرهُ بأنه (هتيمي)؛ فاعلم أن ذلك سبٌّ شديد لهذا الشخص.

الطبقة الخامسة:

الطبقة الخامسة هي **الكواولة** (مفردها: كولي - مذكر، كولية - مؤنث)، ولا أدري! ما أصل هذا المصطلح[(١)]؟

---

(١) يعرفون في بغداد وأغلب أقطار العراق وجزيرة العرب؛ باسم الكاوليَّة أو الكُوليَّة أو الكُول، والواحد منهم كاوليّ أو كُوَليّ، وعندي أنها مشتقة من كُوَل -بضم ففتح-. قال في «التاج»: «كُوَل كزُفَر والعامَّة تكتب كُوَار كغراب بالراء في آخره، وهكذا هو في كتب الأنساب: بلدة بفارس بينها وبين خور عشرة فراسخ لا محلَّة بشيراز كما ظنَّه الصاغاني، ويحتمل أن تكون هذه المحلة نُسبت إلى أهل هذه القرية لنزولهم بها» انتهى.

=

= وعليه؛ فإنَّهم من أصل فارسي، اللهم إلا أن يُقال أن الكَوْيليَّة نسبة إلى الكَوْي على الطريقة التركية؛ لأن الكلمة تركية ومعناها القرية، ومحصَّلها القرويُّون لحلولهم في ضواحي المدن الكبار أو في القرى المجاورة لها؛ فحينئذٍ يُقال: إنَّهم من أصل نشأ في بلاد الترك، ويحتمل أن يكونوا من عنصر تركي أو غيره، أو أن يُقال أن الكلمة تصحيف الكُول وهي طائفة من الناس جاء ذكرها في التاريخ، قال ياقوت في مادة (المُوْلتان): «ذكر أهل السِيَر أن الكول وهم شراة كُفَّار تلك الناحية (ناحية المولتان في بلاد الهند) سبوا نسوةً من المسلمين فصاحت امرأة منهم: يا حجَّاجاه، فبلغه ذلك؛ فأرسل إلى داهر ملك الدَيبُل وأمره على الغزو لهؤلاء الذين سبوا النسوة؛ فحلف أنه لا طاعة له على الذين أخذوهنَّ، فاستأذن عبدالملك في غزوه فلم يأذن له، فلما ولي الوليد استأذنه فأذن له؛ فبعث لذلك محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عمه؛ فقتل داهر، وفتح مولتان من بلاد الهند»، وفي «فتوح البلدان» (ص٤٣٥) للبلاذري اختلاف في الرواية؛ فانظره.

وعليه؛ فيكون الكول أو الكولية من أصل هندي، **وهو الأرجح على ما يظهر لي**، أو لعلَّ الكاوليَّة مصحَّف الكُوْهليَّة نسبة تركية إلى كُوه أي الجبل؛ فيكون معنى الكاوليَّة الجبليين، أو لعلَّها تصحيف كَهْلُويَّة، وهي قرية من قرى سَوْدُوذ أو سَرْدروذ، ولتلك القرية تصحيفات أخرى منها كيْلُويَّة، والأصل في تسميتها كوه كهلويَّة، أفاده العلَّامة اللغوي الكرملي، نشره في مجلة «المشرق» التي كانت تصدر في بيروت، سنة (١٩٠٢م، ص٨٦٥ - ٨٧٦، ٩٣٢ - ٩٤٠، ٩٦٦ - ٩٧٥، ١٠٣١ - ١٠٣٧، ١٠٧٧ - ١٠٨٦)، وعنوانه: «إطلاع الحَضر على أطلاع النَّوَر» ومن كتاب نبيل صبحي «جماعات الغجر»، نشر دار المعارف سنة (١٩٨٠م)، ومن «أدب الرسائل بين الآلوسي والكرملي» (ص٩٨)، وفيه إشارة إلى أن لجمال الدين الأفغاني رسالة في أحوالهم ومنشئهم واختلاف مشاربهم ووجودهم في جميع أقطار الأرض، ومن «قاموس الصناعات الشامية» لجمال الدين القاسمي (ص١٦٨، ٢٢٨، ٢٨٨، ٣٢٧)، واستطلاع مجلة «العربي» الكويتية، (العدد ١١٥، سنة ١٩٦٨م، ص١٤٦، والعدد ١٢٦، سنة ١٩٦٩م، ص٣٥ - ٤٠)، ومجلة «التراث الشعبي» العراقية (العدد١١، السنة٥ سنة ١٩٧٤م، ص١٦٠ - ١٦٢)، و(عدد ٩، سنة ١٩٧٧م، ص٢١ - ٣٢)، ومجلة «المعرفة» (المجلد الخامس، ص٩٢٠)، ومجلة «المصور» (عدد٢٥٨٦، =

ولهؤلاء الناس في أسلوبِ حياتِهِم شَبَهٌ كبير بالغَجَر؛ إذ هم دائمو الترحال، ولا يستقرُّون في محلٍّ ثابت، ليس لديهم أملاكٌ غير الحمير والكلاب.

أمَّا الغرضُ مِنَ الحَمِيرِ: فلِنَقْلِ خِيامهم الرَّثَّةِ وما يحتاجونه من مَتاعٍ ضروريٍّ.

وأما الغرضُ مِنَ الكلابِ: فللحراسة، وعندهم -أحيانًا- كلابُ صيد.

ولون بشرتهم بُني، وهم مُحتَقَرُونَ جدًّا.

وكلمة (كَوْلِي) شَتِيمَةٌ كبيرة.

وينصبون خيامهم خارج المدن والقرى، ثُمَّ يبحثون لدى سُكَّانِها عن العمل، ويعودون في المساء إلى أهلهم ومعهم ما حَصَّلوهُ من كَسبٍ وقُوتٍ، ثُم -بعد انقضاء بضعة أيام- يواصلون ترحالهم.

الطبقة السادسة:

أما هذه الطبقة؛ فهي تضمُّ من يُسمَّون بـ(**الصُّلْبَة**) (مفردها: صُلْبِيٌّ - مذكر، صُلْبِيَّة - مؤنث)، ولا يوجد بينهم وبين الكواولة -فيما يخص المكانة المحتقرة- كَبِيرُ خِلافٍ، وربما يُنظر إليهم بدرجة أدنى من الطبقة السابقة.

وقد شاهدتُ الناسَ يرفضون الأكل معهم؛ بل لا يسمحون للصُّلبِيِّ -أبدًا- أن يلمسَ إناءً للأكل أو الشرب! إذ يعتقد العرب أن هؤلاء قومٌ قذرون!

ومن غير المُجدي إقناع العرب بأن هؤلاء البشر هم كباقي الخَلقِ، إذا أصابهم شيءٌ قَذِرٌ؛ تَطَهَّرُوا منهُ كغيرهم من الناس، بحيث يصير الجميعُ سواسية، إذًا؛ ما الضَّيرُ -والحالُة هذه- أن يُؤَاكِلَهُم المرءُ؟!

= سنة ١٩٧٤م، ص٤٢ - ٤٤)؛ وفي جريدة «الأهرام» المصرية (عدد١٦/ ٤/ ١٩٧٨م) مقال بعنوان «مواقف» فيه عرض عن مؤتمر الغجر بسويسرا.

بل إِنَّهُم يَعُدُّون قائِلَ مثلَ هـذا الـكلام معتوهًا! وقد حاولـتُ -أنا شـخصيًّا- أن أقنع زوجتي بأنَّ المرأةَ الصُّلْبِيَّةَ هي امرأةٌ كغيرها من نساءِ العرب؛ فماذا الضَّيْرُ -إذًا- عندما يأكلون من صحوننا، ويمكننا إعطاؤهم صابونًا يغسلون به أنفسـهم حتى نتأكَّد من نظافة أيديهم -تمامًا-؟

كُلُّ محاولاتي باءت بالفشـل؛ ولـم تفقه زوجتي مـا قُلتُهُ لهـا؛ فهذه الأعراف تغلغلـت في عقليَّتهـا العربية إلى أبعـد الحدود.

وكافة المنتمين لهذه الطبقة ذَوُو بشـرة بيضاء، ونـادرًا ما تجد بينهم مَنْ فيهِ سُـمرَة، **أمَّا نِسـائُهم؛ فذَوَاتُ جمالٍ أخَّاذ**، ومع ذلك؛ فليس لهنَّ أية قيمـة، ومردُّ ذلك: أن مـن يُخالِطُهـم ويحتكُّ بهم؛ هو مثلهـم أو أقلُّ مرتبةً منهم.

والصلبة هم من البدو -غالبًا-، وأصحابُ دوابٍّ، رِجَالُهُم صيادون مَهرة، ورُمَاةٌ مُتَمَيِّزُون، ولديهم معرفة دقيقَةٌ بالصحـراء، ويمكنهم تتبُّعُ الآثار واقتفاؤهـا ليلًا أو نهـارًا، ويتميـزون بالذكاء والصبر والشـجاعة، ولكن؛ لا يُشـغلون أنفسـهم بالقراءة والكتابة -بتاتًا-، لذلك؛ هم أُمِّيُّون مثل الكواولة.

والصُّلبِيَّاتُ اللاتي لا يسـكُنَّ بعيدًا عن المدن؛ يأتين يوميًّا إلى المدينة من أجل البحث عن عمل داخل البيوت، إلا أن النساء العربيات لا يسمحن لهن إلا بممارسة الأعمال المسـتقذرة -فقط-، ولا يُسـمح لهنَّ -البتة- بالدخول إلى المطبـخ أو غرف الجلوس مـن أجل إنجاز أيِّ عمل فيها، ثُمَّ إنهنَّ يُحضـرن أواني الأَكْلِ معهنَّ، ثُمَّ يرجعن في آخـر اليوم إلى الخيام خارج المدينة.

ويُقالُ: إن هؤلاءِ هم بقايا الأوروبيين الذين تبقَّوا أثناء الحملات الصليبية في سوريا وفلسطين، وبعد انتهاء الحرب انتقلوا إلى الصحراء وصاروا بدوًا،

ومع مرور الزمن؛ تلاشت لغتهم الأوروبية واستعربوا[(١)].

---

(١) إن الإفرنج الذين عُنوا بجمع شتات تاريخ هذا الجيل وبتدوين بعض الأخبار عنهم؛ لهم رأيٌ واحدٌ في أنَّهم لم يكونوا معروفين قبل سنة (١٤١٧) للميلاد في بلاد أوربة أو سنة (١٤٠٨ أو ١٤٠٩) أو على الأبعد سنة (١٣٩٨) في آسية، وذلك إثر انتشارهم في الأقطار، لأنَّ ضرْبهم في البلاد وقع على ما قالوا عقب غزوة تيمورلنك لدهلي.

وأما كتبة العرب المحدثين؛ فلم يذكروا شيئًا عن هذا الجيل الغريب غير ما ذكره الإفرنج، بل نقلوا ما كتبوهُ، وذهبوا مذهبهم، وجهلوا إن كان للنَّور ذكرٌ في تاريخ الدولة العربيَّة، وقد بلغوا الشأو البعيد من الشهرة، وإن كانت تلك الشهرة سيئة، وقد شاطوا شوطًا ممدودًا في الأحداث والوقائع التي طرأت قُبيل الإسلام وبعدهُ، وهو مما يدلك على أن الإفرنج قد وهموا في قولهم أنهم لم يكونوا معروفين قبل غزوة تيمورلنك التي اختلف المؤلفون والمؤرخون في ذكر سنتها على التحقيق، وأبعد ما اتَّصلوا إلى تعيينها هو سنة (١٣٩٨).

وقد ذهب العلماء مذاهب شتَّى في أصل هذا الجيل ومنشئه، فمنهم من قال بأنَّ أصلهم أوروبي كما تدل عليه بعض أسمائهم عند الإفرنج، **وهذا رأي فطيرٌ لا يختمر، وإن مرَّت عليه الأدهار**، ومنهم من ذهب إلى أنهم من **أصل مصري وهو مذهب لا يقل سخافةً عن المذهب السابق**، ومنهم من صرَّح بأنهم من أصل فارسي، وهو رأي توافقه بعض شهادات، ومنهم من أثبت أنهم من الهنود وهو **الرأي الأشيع، وعليه أغلب المحققين من المؤرخين، وتسنده أسانيد كثيرة، لكنه عندنا ليس بالرأي السديد الصحيح**، والنَّوَر على ما نرى خليط من هنود وفرس وكرد وترك وتتر ونحوهم من خشارة أمم تلك الأصقاع ونفايتهم، بل وفيهم بعض العرب وشيء من حثالة سائر الأمم التي يجاورونها مدة أو يحلون أصقاعها وربوعها.

أما كيفية الوصول إلى إثبات هذه الحقيقة؛ فليس لنا وسيلة أخرى إلا البحث عن أصول تسميتهم اللغوية في الديار الشرقية، فإن اللغة قد أدَّت خدمة عظيمة ذات بال في مثل هذه الظروف للتوصل إلى معرفة أصل الشعوب والأمم والأجيال والطوائف البشرية كما هو معروف من إثبات أصل الهنود والفرس، تلك الأمور التي أصبحت اليوم راهنة، بل وفي حرز حريز من الصحة، بحيث لا تصل إليها بعد ذلك يد الوهم أو الخلط أو الخطأ، ومن هذا القبيل أيضًا فحص لغتهم التي يتكلَّمون بها في ما بينهم، وتدقيق النظر في أصل الكلم الجارية في لغتهم هذه، وعليه؛

=

= فلنبحث أولًا عن أسماء هذا الجيل في بلاد الشرق وأصل مشتقات تلك الألفاظ، وإلى أي عنصر من العناصر ترجع.

وعلينا أن نلاحظ أن أسماء هؤلاء الأقوام تختلف باختلاف البلاد من غربيَّة وشرقية حسب الظن الذي حمل الناس على توهم بلاد منشئهم أو مأتاهم، أو حسبما ادَّعاه هؤلاء الأقوام من أصل بلادهم، بل وتختلف أسماؤهم باختلاف القرون والعصور توهيمًا للناس.

من أسماء النور (الغَجَر) بالتحريك وهو الاسم الذي يسمِّيه به أهل الجزائر وتونس والديار المصرية، والغجر تصحيف كوجر (cotchar) التركية؛ أي: الرُّحَّل أو المهاجرون، وبهذا الاسم التركي يسمَّون إلى يومنا هذا في غربي بلاد فارس وشرقي آسية وبلاد الجزيرة، والبعض يقول كُجر أو كَجر، واللفظة من أصل فارسي مشتقة من (كوجيدون)؛ أي: ارتحل أو هاجر، والمهاجرة والترحال من دأبهم وديدنهم، وهذه اللفظة لم تُطلق على النور قبل المئة السادسة عشرة للميلاد، وإليك تاريخها:

في عهد الشاه عباس الكبير من الدولة الصفوية في البلاد الإيرانية (وقد توفي سنة ١٦٢١م) ضيَّق بعض الحكام على التركمان؛ فنزح عن وطنهم «خمسون ألف أسرة»، وجاءت الشاه المذكور وطلبت منه إسكانها بلاده؛ ففرح الشاه بهذه المهاجرة، إلا أنه فزع من كثرة العدد الذي داهمه؛ إذ تصوَّر أنه ربما يتقوى حزب هذه الأسر يومًا فيقلب أصحابه الدولة ظهرًا لبطن، ويصلون إلى أسمى وظائفها، ولما كان هذا الشاه داهية دهياء في السياسة؛ فرَّقهم في بلادهم إضعافًا لقوتهم، فأقام جماعة منهم في (جنوب بلاد فارس) على شاطئ بحر فارس صدًّا لغارات العرب، وأسكن طائفة منهم (خمسة وورومية)؛ فجعلهم بمنزلة سور حصين في وجه أعدائه، وأما الطائفة العظمى فأنزلها (مازَنْدَران) كبحًا لجماح الأزبك والتركمان والأوميد والتتار الرُّحَّل الذين لا يفتأون من شنِّ الغارات وقطع الطرق والمسالك على أبناء السبيل، ومنذ ذاك الحين أُطلق عليهم بنوع خصوصي اسم (قَجر أو غَجر أو كَجر)، وكلها تصحيف بيِّن لكلمة كوجر، وأما هذه اللفظة الأخيرة؛ فأُبقيت على صورتها الأصلية لمطلق الرُّحَّل أو المهاجرين الذين ليسوا من هؤلاء الأقوام، وبعد أن رسخت أقدام الغَجَر في البلاد الجديدة التي حلُّوها انقسموا إلى فئتين وهما: فئة الشرق، وفئة الغرب، وسمِّيت الفئة الأولى (يوقاري باش) أي (الأعلون)، والفئة =

ويُقالُ: إن اسم (صلبة) مأخوذ من كلمة (صليب).

= الثانية: (أشاغي باش)؛ أي: (الأسفلون).

أم (الأشـاغي باش) أو (غَجَـر الغرب)؛ فاختلـط أغلبهم بالفـرس كل الاختلاط، وامتزجوا بهم امتزاج الماء بالـرَّاح، واتخذوا أزياءهم وملابسـهم ولغتهم وتخلَّقوا بأخلاقهـم، وفريق منهم أوغلـوا في التسيار؛ فجاؤوا شـرقي بلاد تركيـة، وأخذوا يتنقلون مـن بلد إلى بلـد حتى طرحتهـم الطرائح إلى شـمالي إفريقيـة؛ فتوطَّنوها بالطول والعرض، وهم الذين غلب عليهم اسم (الغَجَر)، أما اليوقاري باش أو غجر الشرق؛ فلم يتخذوا من الفرس إلَّا لغتهم، وبقوا محافظين على أصلهم وعنصرهم إلى يومنا هذا متجمِّعين في مازَنْـدَرَان، وقد تحصَّنوا بالخصوص في اسـتراباد على بحر قزوين، واتخذوها قصبة لهم طاوين أيامهم تحت حكم رئيس منهم يُعيِّنه لهم الشـاه؛ فهذا هو إذن أصل الغَجَر وتاريخهم على وجه الاختصـاص، وممَّا اطَّلعتُ عليه تتحقق أنهم مـن التركمان.

أما (النَّوَر) وواحدها (نوريّ)؛ فعندنا أنها تصحيف لور، وهذا التصحيف يُرى أحسن رؤية في المفرَد؛ فكلمة (نوري) لا تبعد كثيرًا عن (لُوري) سوى بالنون، وأنت تعلم أن تعاقب النـون واللام في صدر الكلمـة وقبلها وعجزها من الأمور المشـهورة في العربية؛ فإن صاحب «المزهـر» قد ذكر أمثالًا كثيـرةً تؤيد هذا الإبـدال، ومن ذلك «اللَّبْلَبَة والنَّبْنَبَة ولهزتُه ونهزته، ثم قلَّة وقنَّة وحالك وحانك، ثم هتل وهتن وهردلة وهردنة»؛ فتأمل.

أما شـيوع لفظة النوَر؛ فكان في القرن الثامن للميلاد حينما تغلَّب العرب على بلاد اللُّور أو لورِسْتان (من سنة ٦٥٢ إلى سـنة ١٢٥٨)، إلَّا أن الفصحاء من العرب لم يذكروها في كتبهم لأنهم نظـروا إلى هذه اللفظة نظرهم إلـى المولَّد من اللغة، وهم كثيرًا ما كانوا يستنكفون من استعماله إلَّا إذا ألجأتهم الضرورة، وأنت تعلم بأن اللُّور مشهورون بتلصُّصهم ومكرهم ودهائهم وشعوذتهم وسحرهم إلى آخر ما عندهم من الأخلاق الذميمة التي حملت العرب على أن يشتقوا من لفظة (النُّوريّ) المصحفة من لوريّ فعـل (نوَّر) بمعنى فعـل فِعْل النوَر من شـعوذة واختلاس.. إلـخ، وأول من ذكر ذلك من العرب الأزهري (المتوفى سـنة ٩٨١ للميـلاد)؛ غير أنهُ ذهب إلى أن الفعل مشـتق من (نورة)، وأن نورة هي امرأة سـحَّارة، وهذا نص كلامه: «نُورَةُ: بالضم اسـم امرأة سـحَّارة، ومنه قولهم: لمن فعل فعلها قد نوَّر؛ فهو منوِر، وليس

=

= بعربيَّة صحيحة»؛ فزاد على هذا الكلام صاحب التاج، ما حرفهُ: «قلتُ: ويجوز أن يكون منه نأخذ «النوري» بالضمّ وياء النسبة للمختلس، وهو شائع في العوام كأنه يُخيَّل بفعله ويشبَّه عليهم حتى يختلس شيئًا والجمع نوَرة محركة» اهـ.

وقد قال الشيخ إبراهيم اليازجي في مجلة «طبيب» سنة (١٨٨٤ - ١٨٨٥، ص١٦٩) بعد إيراد كلام «التاج»: «وعليه؛ فتسمية هؤلاء بالنوَر تحتمل أحد وجهين؛ إما أن يكونوا أطلقوا عليهم هذا اللفظ من النوري بمعنى المختلس، لأنَّ صنعتهم الاختلاس، وإما أن يكونوا نُسبوا إلى نورة الساحرة؛ لأنَّ السحر -أيضًا- من شأنهم، **ولعلَّ هذا أقرب لقرب توجيهه**، وحينئذٍ؛ فيجوز أن يكون النوري للمختلس مأخوذًا منهم كما يشهد به استعمال العامَّة لهذا اليوم، وجمع النوري على نورة كما في «التاج»، أو على نوَر كما هو المتعارف في هؤلاء كلاهما على غير قياس، إلا أن هاتين الصيغتين قد تترادفان في الجمع كما يقال: خدمة وخدم، وحفدة وحفد، فتكونان من بابٍ واحد» انتهى.

قلنا: أمَّا قول اللغويين أن نورة امرأة سحارة؛ فهذا محتمل، غير أنَّهم لم يزيدوا على ذلك شيئًا يُعرِّف هذه المرأة من زمانٍ عاشت فيه أو بلدةٍ نشأت فيها أو أمَّة انتسبت إليها؛ فمجرَّد القول أن النورة امرأة سحَّارة **لا يبل صدى غليل ولا يخفِّف جوى عليل**، بل ننظم هذا الاشتقاق في سلك الخياليَّات التي يتوهمها بعض الكتبة في مثل هذه الأمور؛ إراحةً لما في النفس من التطالّ إلى معرفة كل مجهول وإلى حلّ كل معقود، وأما جمع نوريّ على نورَة أو نوَر بالتحريك في كليهما؛ فهو من الجموع الشاذَّة، وكان الحق أن يُقال فيه: «نُوْر» بضم فسكونٍ، كرومي وروم؛ إلَّا أنهم لو كانوا يقولون «نُوْر» على القياس؛ لوقع التباس بين نُور ونورٍ؛ أي: بين اسم هذا الجيل وبين اسم الضوء المعهود، فحرَّكوا إزالة لِلُّبس، **هذا هو رأينا؛ فليتبع القارئ بعد ذلك رأي من يوافقه أو يستصوبه، وعليه**؛ فالنوَر إذن من أصلِ لوريّ أي من جنس الكُرْد.

والحلبيُّون يُسمون النوَر بـ«القَربات» والواحد قَرْباتي، والكلمة تخفيف وتصحيف جَرْباذقانِ أو كرْباذكان، وهي بلدة قريبة من همذان يكثر في ضواحيها سقط الناس ورذالتهم، وقد أمر نادر شاه سنة (١٧٣٨م) بطردهم؛ فغادروا تلك الربوع وجاؤوا بلاد الدولة العليَّة حتى ألقوا عصا ترحالهم في نواحي حلب الشهباء إلَّا طائفةٌ منهم =

= عادوا إلى وطنهم وهم لا يزالون هناك إلى يومنا، وعليه؛ فالقربات من أصلٍ فارسي أو يكاد يكون فارسيًّا لأن ساكني الضواحي لا يُعرف لهم أصل.

وفي أطراف الموصل وبعض أنحاء بغداد يُطلق عليهم اسم (القرج) بجيم فارسية في الآخر، وهم فرقة من النوَر مشهورة بشدَّة جشعها وطمعها وسرقتها، وهم يدَّعون أنهم من القُرَشيين كما هو شأن كل دنيء زنيم؛ فإنه ينتسب إلى أشرف أمَّة أو قبيلة أو أسرة ليزكي أصله، والحق أنهم من كرج، قال ياقوت في «معجم البلدان»: «كرج بفتح أولَّه وثانيه وآخره جيم وهي فارسية... مدينة بين همذان وأصبهان» اهـ.

قلت: ويكثر في ضواحيها كما في ضواحي مدن فارس الكبرى قوم أجلاف من صنف النوَر، ولا شكَّ أنهم من أصل واحد، بل أنهم منهم، أما زمان انجلاء القرج عن وطنهم الأصلي؛ فلم نعثر عليه في التاريخ، وعلى كلٍّ؛ فإن القرج من عنصر فارسي أو يكاد يكون فارسيًّا أي كرديًّا مثلًا.

وقد أشار ياقوت في «معجمه» إلى وجود مثل هؤلاء الناس من الأكراد في نواحي فارس المختلفة بقوله (٣/٨٢٨): «وبنواحي فارس من أحياء الأكراد ما يزيد على خمس مئة ألف بيت شَعَر يتجمعون المراعي في الشتاء والصيف على مذاهب العرب».

وللنوَر في ولاية الموصل اسم آخر وهو (المُطْرِبة)، واشتقاق اسمهم عربي ظاهر، وسبب تسميتهم واضح لا يحتاج إلى شرح.

وفي بعض أصقاع الشام والجزيرة يُسميهم الناس (جُعَيْدِيَّة)، والواحد (جُعَيْدِي)، واسمهم هذا يدلّ على أنهم من عنصر عربي، أو أنَّهم انضموا إلى واحدٍ من العرب اتخذوه زعيمًا لهم اسمه جُعَيْد، قال في «محيط المحيط»: (الجُعَيْدِي): البخيل، ومن كان من أوباش الناس نسبة إلى جُعيد أو هي عامية، وقيل: إن جعيدًا رجل من أهل مصر كان يطوف على الناس لابسًا قلنسوة ذات أجراس وفي يده دفٌّ ينقر عليه وينشد مدائح مرتجلة يستعطي عليها؛ فتبعه جماعة في هذه الصناعة وهم المعروفون بالجعيديَّة نسبةً، وتُطلق هذه النسبة على من كان من لئام الناس تشبيهًا له بالجعيدي» اهـ.

قلت: وكثيرًا ما نرى مع النور في نواحي بغداد مثل هؤلاء الجعيديَّة، يكونون معهم =

= في الحلّ والترحال، ودأبهم الرقص والدقّ وإنشاد الأغاني.

وأمّا الدمشقيُّون وبعض أدباء البصرة؛ فيُسمُّون النوَر «زطًّا»، والواحد منهم زُطيّ، وهذا الاسم -أيضًا- غير مجهول في بغداد، ومعناهُ النوَر والنوريّ، قال في «التاج»: «الزطُّ بالضمّ جِيلٌ من الناس كما في «الصحاح»، وقد جاء ذكره في «صحيح البخاري» (رقم٣٤٣٨) في صفة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**كأنه من رجال الزطّ**»، واختُلف فيهم؛ فقيل: هم السيابجةُ قومٌ من السند بالبصرة، وقال القاضي عياض: هم جنس من السودان طوالٌ».

وجاء في «محيط المحيط»: «الزطُّ طائفة من أصل الهند معرّب جت، وإليهم تنسب الثياب الزُّطيَّة، الواحد زُطيّ، وهم المعروفون في الشام بالنوَر، وبعضهم يسمِّيهم المطربية، لأن مهنتهم التطريب بالطبول والزمور والرقص، وهم ممَّا يشتم به (كذا أي وهو أي اللفظ مما يشتم به)؛ فيقال: يا زطي أي دني، لئيم» اهـ.

وذكرهم في التاريخ مشهور الظاهر أنهم جاؤوا من الهند قبل الإسلام لأنهم كانوا كثيري العدد عند ظهوره، قال البلاذري في «فتوح البلدان» (ص١٦٦): «نقل معاوية في سنة (٤٩ أو سنة ٥٠هـ/ ٦٦٩ - ٦٧٠م) إلى السواحل قومًا من زُطّ البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية، قال أبو حفص: فبأنطاكية محلَّة تُعرف بالزطّ، وببوقًا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يُعرفون بالزط، وقد كان الوليد بن عبدالملك نقل إلى أنطاكية قومًا من زُطِّ السند، ممَّن حملهُ محمد بن القاسم إلى الحجاج، فبعث بهم الحجاج إلى الشام» اهـ، وقال (ص١٧٦): «وقد كان المعتصم بالله نقل إلى عين زَربة ونواحيها بَشرًا من الزطّ الذين قد كانوا غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة؛ فانتفع أهلها بهم»، وقد أتى المؤلف على كلامٍ وافٍ شافٍ (ص٣٧٢ وما يليها)، وكذا ابن الأثير في «الكامل» (٢/ ١٤٢) في وقائع السنة التاسعة للهجرة؛ فانظره.

واعلم أن البعض يجمعون لفظة زط التي يقال فيها «جت» على الطريقة الفارسية؛ أي: بألف ونون في الآخر؛ فيقولون: جِتّان، ومن ذلك الكلمة الإسبانيَّة (Gitano) بمعنى النوريّ، ولا شكّ أن الإسبانيين أخذوا هذه اللفظة عن عرب الأندلُس.

وأمَّا أسماء النوَر في بلاد فارس فتختلف باختلاف البلاد؛ ففي الشمال يُسمَّون =

= (شَاهْسَوَن)، وهم يذهبون كل سنة أوائل الخريف إلى مشاتي لهم وراء نهر الرسّ في بلاد الروس، وإذا انقضى الشتاء عادوا إلى ربوعهم في بلاد فارس، والكلمة مشتقة من (شاهين) وهو اسم زنجان في القديم من الزمان.

واسمهم في قلب بلاد إيران (الفُيُوج) على الطريقة العربيَّة أو (الفايجان) على الطريقة الفارسية، والواحد منهم (فَيْج)، والكلمة مأخوذة من (فايجان) وهي قرية بأصبهان أغلب سكَّانها أقوام رُحَّل يكثر فيهم الذهاب والإياب.

وأمَّا في نواحي أذربيجان؛ فيُسمَّون (تات)، وإليك أصل هذه الكلمة: في جبل (أسكي) من جبال الإيالة المذكورة، طائفة من الناس معروفة بهذا الاسم، منهم حضرٌ ومنهم رُحَّل، أمَّا الحضرُ؛ فلا يكاد يخرجون من أوطانهم، أمَّا الرُّحَّل منهم؛ فهم لا يزالون في تطواف وترحال منتشرين في بلاد فارس كلها عصابات عصابات، وليس لهم ديانة أو آداب أو علوم أو أخلاق، بل هم عبارة عن همج همل وصناعتهم الوحيدة عمل المناخل والغرابيل، والأهلون يُخرّجون الأولاد على الرقص والغناء والدق والخلاعة، ويدفعون نساءهم إلى ركوب المنكرات طلبًا للمعيشة، (ومن هؤلاء من يذهبون إلى بلاد الترك لهذه الغايات؛ فيُعَدُّون منفصلين عن طائفتهم ويسمونهم حينئذٍ: (دَلِي دُرمان)، ومنهم من دخلوا في خدمة العشائر الفارسيَّة منذ قرون؛ فتجنَّسوا بجنسيَّتهم، إلَّا أنَّهم باقون في حالة العبوديَّة والرقّ، ولا يستطيعون نزع اسمهم عنهم مهما فعلوا أو قالوا.

وطائفة منهم تغرّبوا في بلاد فارس؛ فتعلَّموا فيها أصول التجارة، وأخذوا يتعاطون البيع والشراء على أتمِّ وجهٍ، وهم كثيرًا ما يخفون أصلهم أو ينكرونه أو يُلبِّسون على الناس أعمالهم، ويكذِّبون من يشنِّع طائفتهم، ولسانهم خصوصيٌّ بهم لا يفهمه من لا يكون من جنسهم، وتواريخ بلاد فارس تُصرِّح بوجود هذا الجيل السافل منذ غزوة التاتار، والكلمة (أي: تات) عندي مقطوعة من «تاتار» نفسها، وذلك أن التاتار لا يسمون نفسهم إلا «تُركًا» تاركين على أنفسهم تلقيبهم بالتاتار لِما يتعلَّق بأهداب هذا الاسم من معاني القسوة والفظاظة والخشونة والهمجية، وعليها؛ فتخلَّصًا من عار هذا الاسم وَسموا به الرُّحَّل الموجودين في البلاد التي افتتحوها في فتوحاتهم الأولى، وبقي هذا المعنى معقودًا باللفظة المذكورة إلى يومنا هذا، ولا يزال التاتار =

= يتسمَّون (تُركًا) ولا يزال الفُرس يُسَمَّوْن (تاتًا) في أنحاء كثيرة من البلاد الإيرانية.

وأمَّا اسم النور في بلاد كرمان، فهو (القُفْسُ) أو (القُفْصُ)، وقد عرفهم العرب قديمًا بهذا الاسم المعروف اليوم في تلك البلاد، قال في «التاج» في مادة (ق ف س): «القُفْسُ» بالضم طائفة بكرمان في جبالها كالأكراد، وأنشد:

وكم قَطَعْنا من عدوٍّ شرسِ ... زُطٍّ وأكرادٍ وقُفْسٍ قُفْسِ

ويروى بالصاد أيضًا (انتهى).

وقال في مادة (ق ف ص): «القُفْص بالضم جبل بكرمان، هكذا في النُسخ كلها (من نُسخ القاموس للفيروز أبادي)، والصواب جبل؛ بكسر الجيم والياء التحتية؛ ففي «العباب»، قال ابن دريد: القُفْصَ بالضمّ جيل معروف ينزلون جبلًا من جبال كرمان يُنسبون إليه يُقال له (جَبَلُ القُفْص)، وقال غيره: هو مُعَرَّب (كفج أو كوفج). قلت: وفي «التهذيب»: القُفْص جيل من الناس مُتَلَصِّصون في نواحي كرمان أصحاب مراس في الحرب» اهـ.

وقد كنت كتبتُ رسالةً إلى أحد الأصدقاء في كرمان أن يصف لي حالة القُفس أو القُفص الموجودين اليوم في أنحائه؛ فكتب لي كتابًا كلَّهُ فوائد، ومن غريب الاتفاق أن كلامه يوافق كلام ياقوت الحموي كل الموافقة، كأن ياقوت شهد الأمور البارحة ودوَّنها اليوم في كتابه، ولهذا؛ فإني أُورِد كلام ياقوت هُنا ليتحقق الواقف على مقالتي هذه أن العوائد والأخلاق في الشرق لا تعرف الاضمحلال، وأن ما كتبه صاحب «معجم البلدان» هو عين الحق، وهذا نصُّ كلامهِ (٤/ ٣٨٠ وما بعدها)، وهو وإن كان طويلًا؛ **إلَّا أنه لا يثير الملل في القارئ لِما حوى من فرائد الفوائد**، قال:«... القُفْس جبلٌ بكرمان، في جبالها كالأكراد يقال لهم «القُفُس» و«البَلُوص»... قال الرُهْنيُّ: القُفس جبلٌ من جبال كرمان ممَّا يلي البحر وسكانه من اليمانية، ثم من الأزد بن الغَوْث، ثم من ولد سليمة بن مالك بن فهم وولده لم يكونوا في جزيرة العرب على دين العرب، للاعتراف بالمعاد والإقرار بالبعث، ولا كانوا مع ذلك على دينهم في عبادة طواغيتهم التي كانوا يعبدونها من الأوثان والأصنام، ثم انتقلوا إلى عبادة النيران فلم يعبدوها أيضًا عندهم وفي قُدْرَتهم، ثم فُتحت كرمان على عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فلم يظهر لأحدٍ منهم ذلك من ذلك الزمان إلى هذا الزمان =

= ما يُوجب لهم اسم نِحْلَةٍ وعقدٍ ولا اسم ذمةٍ وعهد، ولم يكن في جبالهم التي هي مأواهم بيت نارٍ ولا فهر يهودٍ ولا بيعة نصارى ولا مصلًّى مسلم؛ إلّا ما عساه بناهُ في جبالهم الغُزاة لهم، وأخبرني مخبِر أنه أخرج من جبالهم الأصنام الكثيرة ولم أتحققه، قال الرُهْنيُّ: وإني وجدتُ الرحمة في الإنسان، وإن تفاوت أهلها فيها؛ فليس أحدٌ منهم يغار من شيء منها، فكأنها خارجة من الحدود التي يُمَيِّز بها الإنسان من جميع الحيوان كالعقل والنطق اللّذَيْن جعلا سببًا للأمر والزجر، ولأن الرحمة وإن كانت من نتائج قلب ذي رحمة، ولذلك في هذه الخلَّة التي كأنها في الإنسان صفة لازمة كالضحك؛ **فلم أجدْ في القفس منها قليلًا ولا كثيرًا، فلو أخرجناهم بذلك عن حدٍّ من حدود الإنسان؛ لكان جائزًا...**».

قال الرهنيُّ: «وأردنا بذكر هذه الأمور التي بيَّناها من القفس لندلَّ على أنهم لم يكن لهم قط في جاهلية ولا إسلام ديانة يعتمدونها، وليعلم الناس أنَّهم من هذه الأحوال يعظِّمون من بين جميع الناس علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لا لعقد ديانة، ولكن لأمر غلب على فطرتهم من تعظيم قدره واستبشارهم عند وصفه».**

قال البشاري: «... **والغالب على القفس النحافة، والسمرة، وتمام الخِلقة**، يزعمون أنهم عرب وهم مفسدون في الأرض، وبين أقاليم الأعاجم مفازة وجبال ليس بها نهر يجري ولا رستاق ولا مدينة مشهورة، يسكنها الدُعَّار، صعبة المسلك، وفيها طرقٌ تسلك من بعض النواحي إلى بعض؛ فلذلك قد عُمل فيها حياضٌ ومصانع أكثرها من خراسان، وبعضها من كرمان وفارس والجبال والسند وسجستان، والدُعَّارُ بها كثيرٌ، لأنهم إذا قطعوا في عملٍ هربوا إلى الآخر، وكمنوا في كركس كوه وسياه كوه لا يُقدَر عليهم، وليس بها من المدن المعروفة إلا سفند...» قال: «وقد خرجنا من طبس نُريد فارس، فمكثنا فيها ٧٠ يومًا نعدل من ناحيةٍ إلى ناحيةٍ، نقعُ مرَّة في طريق كرمان، وتارة نقرب من أصبهان؛ فرأيت من الطرق والمعارج ما لا أحصيه، وفي هذه الجبال صرودٌ وجرومٌ ونخيل وزروع، ورأيتُ أسهلها وأعمرها طريق الريّ، وأصعبها طريق فارس، وأقربها طريق كرمان، وكلها مخفيةٌ من قومٍ يقال لهم القفص، يسيرون إليها من جبالٍ لهم بكرمان، **وهم قومٌ لا خَلاق لهم، وجوههم وحشة وقلوبهم قاسية، وفيهم بأس وجلادة، لا يُبْقون على أحد، ولا يقنعون بأخذ**

=

= **المال حتى يقتلون صاحبه، وكل من ظفروا به قتلوه بالأحجار كما تُقتل الحيَّات، يمسكون رأس الرجل ويضعونه على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتفدَّغ،** وسألتهم: لِمَ تفعلون ذلك؛ فقالوا: حتى لا تُفسد سيوفنا؛ فلا يفلت منهم أحدٌ إلا نادرًا، ولهم مكامن وجبال يمتنعون بها وقتالهم بالنَّشَّاب ومعهم سيوفٌ.

وكان البلوص شرًّا منهم؛ فتَتَبَّعَهُم عضد الدولة حتى أفناهم، وصمد لهؤلاء؛ فقتل منهم كثيرًا وشرَّدهم، ولا يزال أبدًا عند المتملِّك على فارس رهائن منهم، كلَّما ذهب قومٌ استعاد قومًا، وهم أصبرُ خلق الله على الجوع والعطش، وأكثر زادهم شيءٌ يتخذونه من النَّبْق ويجعلونه مثل الجوز يتقوَّتون به، **ويدَّعون الإسلام وهم أشدُّ على المسلمين من الروم والترك**، ومن رسمهم أنهم إذا أسروا رجلًا حملوه على العدو معهم ٢٠ فرسخًا حافي القدم جائع الكبد، وهم مع ذلك رجَّالة لا رغبة لهم في الدواب والركوب، وربَّما ركبوا الجمَّازات (نوع من المحامل)» اهـ.

وقد جاء ذكر القفص والبلوص في «الكامل» لابن الأثير في كلامه عن عصيان أهل كرمان على عضد الدولة سنة ٣٦٠، (٨/ ٢٠٢)، وقد ذكرهم غير واحدٍ من المؤرِّخين، وليس في كلامهم زيادة على ما أوردناه.

وأهل جُلفا وأصبهان ونواحيهما يُسمُّون النوَر: (كنجو) واللفظة أرمنيَّة مأخوذة من (كَنجه) بفتح فسكون، قال ياقوت: «وكَنْجة من نواحي لُرِسْتان بين خوزستان وأصبهان»، وعليه؛ فالكنجو من أصل لوري، ولهم في تلك الأصقاع اسم ثانٍ وهو بوشا، وهي أيضًا أرمنيَّة الأصل، مشتقَّة من بوشنج أو بوشنك أو فوشنج، والعامَّة تقول: بوشان؛ فاعتبر الأرمن الألف والنون من علامة الجمع بالفارسية كما هو معهود؛ فقالوا في المفرد: «بوشا»؛ فيكون على هذا أصل هؤلاء من بلاد فارس، لأن بوشنك على ما قال صاحب «المراصد»: «بُليدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ في وادٍ كثيرة الشجر والفواكه، وأكثر خيرات هراة مجلوبة منها» اهـ.

وأمَّا في غربي بلاد فارس في الأصقاع التي تُتاخم البلاد العثمانية؛ فاسم النوَر يتقلَّب بين (زوزان)، وسوزان، وزيزان، وسَيْزَان، وسوسان، وسيَسْان، وساسان، وكلها تصحيف (الساسانية أو بنو ساسان)، وهو اسم النوَر عند قدماء العرب على ما اشتهر من كتبهم وتواريخهم، بل وهو اسمهم الحقيقي الذي يشمل جميع عشائر =

= النوَر بأنواعها وفصائلها وأقسامها، وهذا الاسم الذي يجب أن يُسمِّيهم به الكتبة وأبناء الأدب، ولا حاجة في إثبات أن بني ساسان هم النوَر بعينهم؛ فهذه حقيقة راهنة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار.

وقد اكتفينا بما تقدَّم خوفًا من الإطالة على غير طائل، أمَّا سبب تسميتهم ببني ساسان؛ فقد اختلفت فيه الآراء، قال في «التاج»: «الساسانية طائفة من الفرسِ نُسبوا إلى ملكٍ لهم يُقال له: ساسان، وقال الشريشي: هو أول من سنَّ الكُدْية (وفي الأصل المطبوع الكذبة وهو غلط طبع)؛ فنُسبوا إليه كما أن الطُفيلي منسوب إلى طفيل أوَّل من تطفَّل» انتهى.

وقال الشيخ محمد عبده في «شرح مقامات البديع» (ص٨٩): «بنو ساسان الشحاذون وأهل المسألة، وساسان؛ يقولون إنه كان رجلًا فقيرًا حاذقًا في الاستعطاء، دقيق الحيلة في الاستجداء؛ فنُسب إليه المُكَدُّون، وعندي أن الساسانيَّة وبنو ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان وأنه جدّ السفلة أو شيخهم إنما جاءت بعد زوال دولة الساسانية من الفرس التي كان مؤسسها أردشير بابك، فلما محقها الإسلام وبقي من أطرافها أفراد أذلَّاء سقطوا في ألسنة فتيان المسلمين الأولين، فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان، ويعيرونهم بعنوان آبائهم؛ فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجدٍ وحَسَب؛ صارت نسبة قذف وسب، وكان من أشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلًا عمَّا تطمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب، وهي أن لا يبقى للدولة الساسانية ذكر في لسان ولا أثر في جنان يُنبئ عن سلطانها أو رفعة شأنها، وإذا خطر أمرها بالبال؛ فلا يخطر إلَّا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة، ثم نُسي ذلك بمرور الأيام، وبقي اللفظ مستعملًا في الشحاذين وهم أدنى طبقة في الناس، ولقد سمعتُ في بعض البلاد سبًّا تعجَّبتُ لأول سماعه، ثم انتبهت إلى سببه، وذلك أن رجلًا كان قد رأى على ابنه شيئًا يشير إلى رخاوةٍ فيه؛ فكان نهاية شتم قالهُ في شدَّة غيظه: «يا برمكي»؛ فعلمتُ أن أهل الدولة من العباسيين بعد أن نكبوا البرامكة جعلوا عنوانهم عارًا لمن يتصل به، وبقي ذلك إلى اليوم في ألسنة بعض البلاد في مصر، هذا وللبرامكة أعوان وأنصار حفظوا طيب ذكرهم في بطن الكُتب إلى ما شاء الزمان أن يبقى، أما الساسانية؛ فلم =

إن وضع هؤلاء الناس محزن، ومثير للشفقة، وربما تقوم الحكومة

= يكن لهم بعد تمكُّن الإسلام في فارس وليّ ولا نصير» اهـ بحرفه.

قلت: **إن هذا التأويل وإن كان بديعًا في مبناه فريدًا في معناه؛** إلا أنه لا ينفي سائر التأويلات التي يتأوَّلُها الأدباء؛ فقد جاء في «الكامل» لابن الأثير (١/ ٩٥): «أن ساسان بن بهمن لمَّا رأى فِعل أبيه (أي أنه عقد التاج لدارا وهو في بطن أمه)؛ لحق بإصطخر وتزهد، ولحق برؤوس الجبال واتخذ غنمًا، وكان يتولَّاها بنفسه؛ فاستبشعت العامَّة ذلك منه» اهـ؛ فلعل الذين أحبوا الاستعطاء والكدية وهذا النوع من الزهد (إن كان هذا يسمَّى زُهدًا في لغة من اللغات) افتخروا بكونهم قد سبقهم إلى مثل هذه العيشة ساسان بن بهمن، ولكونهم يتتبعون أثره يحق لهم أن ينتسبوا إليه، **ولعلَّ بني ساسان الأوَّلين الذين اتخذوا الاستجداء مهنةً كانوا إذا أرادوا أن يحثُّوا الناس على البذل والنوال، ويستعطفوا قلوبهم عليهم بالعطاء؛ يقولون: نحن من أولاد ساسان أو من أتباعه أو من الجارين على سننه، ثم لما كثر التسوُّل باسم ساسان ووقر سماعه على الأذان؛ أصبح هذا الاسم من أثقل الأسماء على الأسماع، وانقلب عنوان عار بعد أن كان عنوان افتخار،** أو لعلَّ بني ساسان نشؤوا في المحلَّة التي كانت بمرو، وكانت خارجة عنها من دَرْب الفيروزيَّة، فلمَّا وافق اسمهم اسم الأكاسرة الساسانيَّة؛ ادعوا أنهم من أصلهم ومَحْتِدهم، هذا واللفظة تحتمل تأويل أخرى، والله أعلم بالصواب.

وخلاصة القول في أصل هذا الجيل؛ أنه خليط من طوائف وأمم شتَّى، ومن نفاياتها وحثالتها وخشارتها وسحالتها، وأنَّ أوَّل أمَّة نشأ فيها هؤلاء الطَّغَام؛ هي الأمة الهندية على ما تقدم القول عن الزط والكول، وذكر هاتين الطائفتين قبل سائر الطوائف، بل وقد انضم إلى هؤلاء الأقوام السفلة غير ما ذكرنا من الناس كالأندغار والسبابجة -مثلًا-، كما يتضح ذلك من سياق كلام البلاذريّ وابن الأثير وغيرهما من المؤرِّخين، ولقد ضربنا صفحًا عن ذكر سائر أسماء النوَر عند العرب، ممَّا ورد بلفظٍ عامٍّ مطلق؛ كالصعاليك، وبني غبراء، والذؤبان، والدُغَّار (بالغين المعجمة)، والدُعَّار (بالعين المهملة)، والذُعَّار (بالذال المعجمة والعين المهملة)، والمداعير، إلى آخر ما هناك من الألفاظ المترادفة.

وقد سبق هاتين الطائفتين طائفة (اللوُر)؛ فإنها على ما يقال قبيلة من الهنود هاجرت =

العراقية -قريبًا- بعمل شيء لإصلاح الحالة البائسة للصلبة والكواولة، وتأهيلهم وتعليمهم؛ ليصيروا عُنصُرًا فاعلًا، يستفيد من مقوِّمات الحضارة.

[آخره، والحمد لله ربِّ العالمين]

وهذه مصورة مقال المجلة باللغة الألمانية:

= من أوطانها وجاءت بلاد الفرس في عهد يزدَجَرْد الملك، فحلَّت فيها وانتشرت في البلاد التي عُرفت بعد ذلك باسمهم، أي باسم (لُورِستان)، أو (بلاد اللُور)، وعليه؛ فالنَّور معرفون في التاريخ منذ أواخر القرن الرابع للميلاد؛ فاحفظه.

Die Kasten in Arabien[1].

Von Taqī ed-Dīn al-Hilālī.

Jeder, der sich um die Kenntnis der Kasten in der Welt bemüht, weiß, daß es bei den Hindus in Indien viele Kasten gibt. Die höchste ist die Kaste der Brahmanen, die niedrigste die der Unberührbaren. Jede Kaste erhebt sich über die unter ihr stehende, so daß ein Mitglied einer Kaste nicht mit Menschen einer niedrigeren Kaste zusammen essen kann. Dies ist bekannt; aber nur wenige wissen, daß es in Arabien Kasten gibt, die in mancher Beziehung denen von Indien gleichen.

Wer die islamischen Verhältnisse gut studiert, weiß, daß das Kastensystem nicht eine neue Erfindung ist, sondern schon in alter Zeit vorhanden war. Mit dem Aufkommen des Islams entstand eine starke Bewegung gegen dieses Kastenwesen. Der Prophet bemühte sich, diese Kasteneinteilung zu beseitigen und alle Menschen in eine Kaste, d. h. in die Religion des Islams, zusammenzubringen. Er hatte jedoch nur einen Teilerfolg zu verzeichnen. In einem *Ḥadīṯ* kommt klar zum Ausdruck, daß er dies wußte. Er sagte: „Vier (schlechte Eigenschaften) werden sie in meiner Religionsgemeinschaft nicht unterlassen[2]). Eine von den vier ist der Vorwurf niedriger Abkunft“[3]). In dem *Ṣaḥīḥ* des Muslim mit dem Kommentar des an-Nawawī und dem des al-Qasṭallānī am Rande[4]) steht: „Es sagte der Gesandte Gottes: ‘Zwei Eigenschaften sind mit dem Menschen vorhanden, beide sind *Kufr* (Unglauben): Der Vorwurf niedriger Abkunft und die Klage über den Tod’.“ In at-Tirmiḏī und Abū Dāwūd finden wir ein starkes *Ḥadīṯ* gegen diejenigen, die stolz auf ihre vornehme Abkunft sind: „Der Gesandte Gottes sagte:

---

[1]) Über gewisse Paria-Gruppen im arabischen Gebiet gibt es eine umfangreiche Literatur; man vergleiche besonders die Artikel *Ṣulaib* und *Hutaim* in der E. I. Über ähnliche, wenn auch etwas anders gelagerte Verhältnisse in Südarabien s. H. von Maltzan, Reise nach Südarabien, S. 182 ff. und A. Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiet, I, 96 ff. Der Wert der vorliegenden Arbeit, die den Tatsachen klar ihre Stelle im Bereich der islamischen Zivilisation zuweist, liegt ganz besonders darin, daß die beigebrachten Beispiele unmittelbar dem heutigen Leben entnommen sind. R. Hartmann.

[2]) D. h. einige seiner Anhänger werden nicht davon ablassen.

[3]) Kommentar des Nawawī zum *Ṣaḥīḥ* Muslim, Druck Būlāq, I. Bd., S. 380.

[4]) Druck Kairo, II. Bd., S. 332.

selbst mit. Am Ende des Tages kehren sie zu ihren Zelten außerhalb der Stadt zurück. Man behauptet, daß diese Leute die Überreste der Europäer seien, die während der Kreuzzüge in Syrien und Palästina waren. Nach den Kriegen seien sie in die Wüste gegangen und Beduinen geworden. Im Laufe der Zeit hätten sie ihre europäische Sprache verloren und die arabische angenommen. Man denkt, daß der Name *Ṣulba* von *Ṣalīb* (Kreuz) herkommt. Die Lage dieser Leute ist sehr traurig und ruft das Mitleid der Menschen hervor. Vielleicht wird die iraqische Regierung bald die trostlose Lage der Ṣulba und Qawāwila beseitigen, sie lehren und unterrichten und an den Errungenschaften der Zivilisation teilnehmen lassen.